الباب الخامس

في ذكر كفاتهم ونكت ألفاظهم وعفوهم ومدائحهم

ويتألف هذا الباب من(*):

١ـ فصل في الكفاة.

٢ـ فصل يشتمل على نبذ من نكت لطائف الوزراء ومحاسن ألفاظهم.

٣ـ فصل من كتاب آخر.

٤ـ فصل في العفو وما يجري مجراه.

٥ـ فصل لابن ثوابة.

٦ـ فصل في استعطافات الملوك والوزراء وطلب العفو والرضى.

٧ـ فصل في مدائح بعض الوزراء.

(*) من ترتيب المحقق.

الباب الخامس

فصل في الكفاة

الكُفـاة هم الـذين يجمعون بين البلاغة والسياسة، فيحكمون بعدلٍ، ويَنـطِقُون بفَصْل، ويحملون الدولة، ويدبِّرون المملكة، ويَسُوسون الرعية، فإنِ انضافَ إلى ذلك أن يكون في بلاغته صاحبَ خطٍّ، وفصاحة لفظٍ، وجمال منظرٍ، وفي سياسته ذا تحيُّلٍ، وصحة فكرةٍ، وثبات عزيمةٍ، فقد لبِسَ ثوب الفضـل بعلَمَيه، وأخذ الحبل بطرفيه، وصَلُحَ لتدبير الدول والممالك، ومن شأن العرب الفصاحةُ والإسجاع والافتخار بذلك، وتكلفه في المجاملة، وكان في دولـة بني أُمية جمـاعة منهم ومن وُلاتِهم ممن يوصف بالبلاغة والسياسة وحُسْن التدبير، ونحن نذكر بعض البلغاءِ من غير اشتراط التقديم والتأخير.

فمنهم عمرو بن العاص، مشهور بالدَّهاء والذكاء والبلاغة والسياسة وتدبير الحروب والدول، وكان لمعاويةَ كالوزير والمدبِّر لدولته والمُشِير.

ومنهم زياد بن سُمَية المنسوب إلى أبي سفيان، له خُطَب بليغة، ورسائلُ وجيزة فصيحة، وسياسة مشهورة، وضوابطُه للأعمال مذكورة.

والحُجَّـاج بن يوسف الثقفي، كان من الفصاحة وَالتمكُّن في البلاغة، والصرامة في السياسة، والجَزْم في التدابير، في غايةٍ لا تكاد تُدْرَكُ، لولا إفراطُ ظلمٍ وعَسْف وتهوُّر أخرجه عن رتبة السُّوَّاس الفضلاء، إلى درجة الأشقياءِ.

ومنهم يوسف بن عمر، والمُهَلَّب بن أبي صُفْرَة، وابنه يزيدُ، والمختار بن أبي عُبَيد، وابن صُوحان، وخالد بن صفوان، وأكثر خلفاءِ بني أمية كانوا يُعانُون

البـلاغةَ في رسائلهم، والفصاحة في خطبهم، كمعاوية ومروان وعبد الملك وكـان حازمـاً بليغـاً، وسليمـان ابنُـه كان عفيفاً عن سَفْك الدماءِ، وعمر بن عبدالعزيز كان بليغاً عادلاً، عفيفاً ناسكاً، سَؤُوساً، وغيرهم.

ومن وزرائهم وكُتَّابهم الكُفاة البلغاء: قَبيصة بن ذُؤيب[٤١]، ورجاء بن حَيْوَة الكِنْدي[٤٢]، وعمر بن هُبَيرة[٤٣]، وعبد الحميد بن يحيى[٤٤].

وأمـا الدولةُ العباسية، فالقائم بدعوتها أبو مسلم عبدُ الرحمن بن مسلم الخُراساني، وكان أحدَ رجال الدنيا سياسةً وهِمَّة وبلاغة.

ومن بُلَغـاء الخُلفـاءِ، وذوي السياسة والتدبير: المنصورُ، ثم المَهديُّ، وكـان يبـاشـر الأمـور بنفسـه، ثم الهـادي، ثم الرَّشيد، والمأمونُ عالِمُ بني العباس، والمعتصم سائسهم، وكذلك المعتضد، وغيره.

وإلى الآن الخلافةُ في ذريتهم، والمعارف والفضائل تُقتبس من جهتهم.

وأما من كان في دولتهم من بُلَغاء الفضلاء، وكُفاة الولاة والوزراء، فأكثر

---

(٤١) قبيصة بن ذؤيب الخزاعي المدني، توفي سنة (٧٠٥م ـ ٨٦هـ) وهو من مواليد عام الفتح. محدث ثقة من فقهاء المدينة اتصل بعبد الملك بن مروان. توفي في دمشق. الترمانيني ص ٦٠٥.

(٤٢) رجـاء بن حَيْوَة بن جرول الكنـدي أبـو المقدام أو أبو نصر (٧٣١م ـ ١١٢هـ) كان فصيحاً عالماً لازم عمر بن عبدالعزيز في عهد إمارته. الترمانيني، ص ٧٢١.

(٤٣) عمرو بن هبيرة بن سعد بن عدي الفَزَاري (٧٢٨م ـ ١١٠هـ) بدوي أمي ولّاه عمر بن عبدالعزيز على الجزيرة سنة ١٠٠هـ. غزا الروم وانتصر عليهم. الترمانيني ص ٧١٠.

(٤٤) عبدالحميد بن يحيى. هو عبدالحميد الكاتب.

من أن يُحصَى، فمِن مشاهير الكُفاة الوزراءِ: أبو سلمة الخَلاَّل[٤٥]، وهو أول من تَسَمَّى بالوزارة، وأبو أيوب المَرْزُباني، ويعقوب بن داود، والفيض بن أبي صالح، والبَرامكة بأسرِهم، سيما جعفر بن يحيى، وأصلهم من ولد بَرْمَك، وكان مكرَّماً عند الفرس من أرباب ديانتهم، وانتهت إليهم في العربية البلاغةُ والفصاحةُ، والإحاطةُ بعلوم الكتابة، وكان الناس ربما تَكلَّفوا رَفْع القُصَصِ والحوائج إلى جعفر لحصول تواقيعه على رِقاعِهم، ثم الفضل بن سهل المعروف بذي الرِّياستين، وأخوه الحسن، وكانا من الفرس أيضاً، وكذلك الفتح بن خاقان، وولده، وعَمْرو بن مَسْعَدة، ومحمد بن عبدالملك الزَّيَّات على ظُلمٍ كان في سجيَّتِه، وأبو محمد المُهَلَّبي، وسليمان بن وهب، وداود بن الجَرَّاح، وولده، وعلي بن عيسى، وبنو الفرات، وبنو مُقْلَة، وبنو جُهَيْر، وبنو رئيس الرؤساء، ويحيى بن هُبيرة.

---

(٤٥) أبو سلمة الخلال، (٧٤٩م - ١٣٢هـ). هو حفص بن سليمان الهمداني كان يسكن بدرب الخلالين في الكوفة، كان حلقة الوصل بين الحميمة وبين خراسان وبعد انتصار جيوش العباسيين سلمت إليه أمور خراسان ويسمى بوزير آل محمد وأعلن الإمامة الهاشمية، ولم يسم الخليفة لأنه كان يرغب بأسنادها إلى جعفر الصادق وعبد الله بن الحسين وعمر الأشرف بن علي زين العابدين وعندما دخل عبدالله أبو العباس الكوفة جاء أبو سلمة واعتذر إليه فقبل عبدالله الاعتذار، ثم تم تدبير قتله فقتل. الترمانيني، ص ٨٤٥.

وهناك وزراء آخرون من الفرس والأتراك:

الحسن بن سهل (٨٥١م ٢٣٦هـ) وهو الحسن بن سهل بن عبدالله السرخسي أبو محمد استوزره المأمون بعد الفضل وتزوج ابنته بوران واشتهر بالأدب والتوقيعات وعاش سبعين سنة. الترمانيني، ص ١٣٣٢. ومن الأتراك الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج (٨٦١م - ٢٤٧هـ). له كتاب البستان والصيد والجوارح وكان وزيراً للمتوكل وقد فضله على أولاده. انظر الترمانيني، ص ٨٤٥.

ومن وزراءِ الملوك من العجم مثل أبي نصر العُتْبي، وأبي نصر الكِنْدي، وأبي الفضل بن العميد، وأبي القاسم إسماعيل بن عَبَّاد، وأبي إسماعيل الطغرائي، ونِظام المُلك أبي الحسن.

ومن وزراء ملوك المغرب ومصر مثل المنصور بن أبي عامر، وابن حَزْم، وابن زَيْدون، وابن عمار، وأبي بكر بن القصيرة، وأبي عامر بن أرقم، وخاتمهم أبو القاسم بن عطية.

فصـــل

يشتمل على نُبَذٍ من نُكَت لطائف الوزراء ومحاسن ألفاظهم

أبو سلمة الخَلَّال وزير السفاح كان يقول: خاطَرَ من ركب البحر، وأشدُّ منه مخاطرةً مَن داخَلَ الملوك.

الربيع بن يونس وزير المنصور كان يقول: موائدُ الملوك للتشرُّفِ بها، لا لِلشِّبَع منها.

أبو عبدالله وزير المهدي، من ألطف قوله: خيرُ الكلام ما قَلَّ ودَلَّ، ولم يُمِل.

ومن كلامه: عقولُ الرجال تحت أَلْسِنة أقلامها.

يحيى بن خالد وزير الرشيد، من أظرف كلامه قوله: ما رأيتُ باكياً أحسن تبسُّماً من القلم.

وكان يقول: الصديقُ إما ينفع أو يشفع.

وقوله: المواعيدُ شِباك الكرام، يَصِيدون بها محامدَ الأحرار.

وكان يقول: ما أحدٌ رأى في ولده ما يحبُّ، إلا رأى في نفسه ما يَكْره.

الفضل بن يحيى وزيره أيضاً، قيل: إنه جرى عنده مدحُ أبيه لجُوده، فقال: وما قَدْرُ الدنيا حتى يُمدح من يجود بكلِّها فضلاً عن بعضها.

ويُحكى عنه أنه لما عُزلَ عن الخاتم بأخيه جعفر، قال: ما انتَقَلَت عني نعمةٌ صارت إلى أخي، ولا غَرَبت عني رتبةٌ طَلَعت عليه.

جعفر بن يحيى وزيره أيضاً، كان يقول: شرُّ المال ما لَزِمَك إثمُ مكسبه، وحُرِمت الأجر في إنفاقه.

الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين، من حُسن نظره في الأمور، كان يقول: ما أظنُّ النعمةَ إلا مسخوطاً عليها، أما ترونها أبداً عند غير أهلِها.

ومن كلامه: إياكم ومخاطبةَ الملوكِ بكل ما يقتضي جواباً، لأنهم إن أجابوكم اشتَدَّ عليهم، وإن لم يجيبوكم اشتَدَّ عليكم.

الفضل بن سهل وزير المأمون، كان يقول: من نَباهةِ العبد شدةُ هيبته لمولاه.

ومن توقيعاته: الأمورُ بتمامها، والأعمال بخواتيمها، والصنائع باستداماتها.

الفضل بن هارون وزير المعتصم، كان يُشَبِّه الكاتبَ بالدُّولاب الذي إذا تعطَّل انكسر، وكان يقول: المسألةُ عن الصديق مسألة.

ومما جرَّبه من الأمور فأخبَرَ به، قوله: ما رأيتُ أقربَ رضى من سخطٍ، ولا أسرع ما بين قرب وبعد من الملوك.

محمد بن الفضل وزير المتوكل، عاتبه المتوكلُ يوماً على اشتغاله بالمَلاهي عن الأعمال السُّلطانية، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ مُقاسمة هموم الدنيا لا تَتَأَتَّى إلا باستجلاب شيءٍ من السرور.

أحمد بن الخَصيب[٤٦] وزير المنتصر: لما خُلِعَ عليه للوزارة قال: مَثَلي

(٤٦) أحمد بن الخصيب من وزراء المنتصر والمستعين تولى الوزارة مع المنتصر طيلة مدة =

كمثل الناقة التي تُزَيَّن للنَّحْر.

وعبيد الله بن محمد بن يَزْداد وزير المستعين، من كلامه: أسرفتُ وما أنصفتُ، وأوجعتُ حتى أجحفتُ.

وعيسى بن فُرُّخذشاه وزير المعتز، كان يقول: القلمُ الرديءُ كالولد العاقِّ.

وسليمان بن وَهْب وزير المهدي[٤٧]، من ألطف كلامه قولُه: عَزْل المودَّة أدق من عزل الخلافة.

وكان يقول: النفسُ بالصديق آنسُ منها بالعشيق.

ولله دَرُّه ما أحسنَ قولَه: إني أغارُ على أصدقائي كما أغارُ على حريمي.

ونَظَر يوماً في المرآة، فرأى شيباً كثيراً، فقال: عيباً لا عَدِمْناه.

ولما وَصَفَه عبيدُالله، قال في حقِّه: هو ولدٌ سارٌّ، كما أنه أخ بارٌّ، ولو وَلَدَ أحدٌ، لكنتُ ذاك.

صاعد بن مخلد[٤٨] وزير المعتمد والموفَّق، كان يقول: النفس أصلٌ لا عِوَض له، والمنع الجميلُ أحسن من الوعد الطويل.

= حكمه وهي سنتان ثم مع المستعين لمدة سنة.

(٤٧) سليمان بن وهب (٨٨٥م ـ ٢٧٢م) هو سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو الحارثي. ولد في بغداد وعمل مع المأمون وهو ابن ١٤ سنة، وولي الوزارة للمهتدي بالله ثم للمعتمد على الله، فنقم عليه الموفق بالله فسجنه حتى مات. له ديوان رسائل. انظر: الزركلي ـ الأعلام ج٣، ص ٢٠١.

(٤٨) صاعد بن مخلد (٨٩٩م ـ ٢٧٦هـ). من نصارى بغداد، أسلم على يد الخليفة العباسي الموفق، ونال حظوة عنده حتى تلكأ في المال لقتال عمرو بن الليث الصفار فتم الاستغناء عنه. انظر الزركلي ـ الأعلام، ج٣، ص ٢٧٢.

القاسم بن عبيدالله وزير المعتضد والمكتفي، كان يقول: عقلُ الكاتب في قلمه، والكلامُ الحسن مصايدُ القلوب.

أبو الحسن بن الفُرات وزير المقتدر، كان يقول: ما أريدُ الوزارة إلا لصديقٍ أنفعه، أو عدو أقمَعُه.

علي بن مُقْلة وزير المقتدر والقاهر والراضي، كان يقول: إذا أحببتُ تهالَكْت، وإذا أبغضتُ أهلكت، وإذا رَضِيتُ آثرت.

أبو نصر بن أبي زيد وزير الراضي، كان يقول: الهدية تردُّ بلاءَ الدنيا، والصدقة تردُّ بلاءَ الآخرة.

أبو الفضل محمد بن العميد وزير رُكْن الدولة، من محاسن لفظه كتابتُه لبعض الإخوان: نحن يا سيدي في مجلس أُنسٍ، غني إلا عنك، شاكر إلا منك، قد تَفَتَّحت فيه عيونُ النَّرجس، وتورَّدَت خدود البنفسج، وفاحت مجامرُ الأُترُجِّ، وفَتَقت قارات النارنج، وأنطقت أَلْسنة العيدان، وقامت خطباء الأوتار، وهَبَّت رياح الأقداح، ونَفَقَت سوق الأُنس، وقام منادي الطرب، وطلعت كواكب النُّدمان فحياتي إلَّا ما حضرتَ لنحصل منك في جنة الخلد، وتتصل الواسطة بالعِقْد.

أبو القاسم بن عباد وزير فَخْر الدولة، من حِلْمه وسَعَة أخلاقه كان يقول: دارُنا هٰذه خان، يدخلها من وَفا ومَن خان.

ولما سأله ابنُ العميد عن بغداد، فوصفها له بقوله: هي في البلاد، كالأستاذ في العباد.

ومن أفصح كلامه قوله: الضمائرُ الصحاح، أبلغُ من الألسن الفِصاح.

ومن كلامه: وَعْدُ الكريم، أَلزمُ من دَيْن الغريم.

وقال: لكلِّ أمر أجَل، ولكل وقتٍ رجل.

وقال: قد يبلغ الكلام، حيث تقصُر السهام.

وقوله في وصف الحَرِّ: وجدت حَرّاً يشبه قلب الصَّب، ويُذيب دماغ الضَّب.

وكان يقول: الآمال ممدودة، والأنفاس معدودة.

وقال: المرءُ عُنوان عقله، بل عِيان قدره، ولسان فضله، بل ميزان عمله.

وكان يقول: خيرُ البرِ ما صفا وكفا، وشرُّه ما تكدَّر وتأخر.

أبـو إسحـاق إبراهيم بن حمزة وزير أبي علي السِّيمَجُورِي، من ألطف كلامه قولُه: ينبغي للأصاغر أن يتقدموا على الأكابر في ثلاثة مواطن: إن ساروا ليلاً، أو خاضوا سيلاً، أو واجهوا خيلاً.

أبو القاسم ابن عباد وزير فخر الدولة، كتب إليه بعض العلوية يخبر بأنه رُزِقَ مولوداً، فأجابه بكتابته في رقعة الأخبار: أسعَدَك الله بالفارس الجديد، والطالع السعيد، فقد واللهِ ملأ العين قرةً، والنفس مسَرَّة، والاسمُ عليٌّ ليُعلِيَ الله تعالى ذِكرَه، والكنية أبو الحسن ليُحسِنَ الله تعالى أمرَه، فإني أرجو له فضل جَدِّه، وسعادة جِدِّه، وقد بعثت لتعويذه ديناراً من مئة مثقال، قصدتُ به مقصد الفال، رجاء أن يعيش مئة عام، ويَخْلُص خلاص الذهب الإبريز من نُوَب الأيام.

وحـدثني عون الهمـذاني قال: سمعت أبـا عيسى المنجِّم يقـول: سمعت الصاحبَ يقول: ما استأذنتُ على فخر الدولة وهو في مجلس الأُنس إلا انتقل إلى مجلس الحِشْمة، فأذِنَ لي فيه، وما أذكُر أنه تَبَذَّل بين يدي، أو مازحني قط، إلا مرةً واحـدةً، فإنه قال لي في شجون الحديث: بلغني أنك تقولُ: المذهب مذهب الاعتزال، والنَّيك نيك الرجال، فأظهرتُ الكراهية لانبساطه،

وقلت: وقَلَّدتنا من الجِدِّ ما لا نَفْرُغ معه لِلهُزْء، ونهضتُ كالغضبان، فما زال يعتـذرُ إليَّ مراسلة حتى عاودت مجلسَـه، ولم يعد بعدها لما يجري مجرى المزح والهزل.

وسمعت الهمذاني الوصي قال: لما توجَّهتُ تِلْقاءَ الرَّي في سفارتي إليها من جهـة السلطان، فكَّـرت في كلامٍ ألقى به الصـاحبَ، فلم يَحضُرْني ما أرضـاه، وحين استقبلني في العسكر، وأفضى عناني إلى عنانه، جرى على لساني: ﴿ما هٰذا بشَراً إنْ هٰذا إلا مَلَكٌ كريمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، فقال: ﴿إني لأَجِدُ ريحَ يُوسُفَ لولا أن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]، ثم قال: مرحباً بالرسول ابن الرسول، والوصيِّ ابن الوصي.

وكتب الوزير أبو بكر الخُوارَزْمي إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب، وهو: قرأتُ كتابك العَذْبَ المواردِ والمصادرِ، والحلوَ الأوائلِ والأواخرِ، الذي نثره غُرَر، ونظمه دُرَر، ونَشْره مسك وعنبر، يقطر منه ماءُ الكتابة، وتَنْسِمُ منه روائحُ البـلاغة، وتهبُّ من ألفاظه رياحُ الخطابة، وينطق عنه لسان الفصاحة، وقد شكرتني أعزَّك الله على قضاءِ حقٍّ لم يسعني إلا أن أقضِيَه، وعلى أداء دَيْن لم يجز إلا أن أُوفِّيه، وزعمت أني عرَّفْتُك مَن جَهِلَك، ونَبَّهت لذِكْرك مَن لم يكن انتبه لك، لا وحقِّ الحق، فإنه الواجب على الخلق، ما رأيتُ أحداً لا يعرفك إلا مَن لا يعرف القمرَ طالعاً، والفجر ساطعاً، والبرق لامعاً، والبحر زاخراً، والفَلَك دائراً، وهل يخفى على الناس النهار، أو هل يستتر عَلَمٌ على رأسه نارُ، وقد شكرتُك على هٰذا الشكر، فلا تَعُدْ لغيره آخرَ الدهر.

وله اعتذارٌ من تخلف المكاتبة:

أَتـانـي معَ الـرُّكبـانِ ظنٌّ ظننتَـه ... لَفَـفْـت له رأسي حياءً من المجـدِ

كتابي إلى مولاي، أطال الله على الزمان بقاءَه، وحفظ على الزمان بهاءَه،

وأدام عِزَّه وعلاءَه، وأراه في أوليائه ما شاءَه، وجعل الأيام إلى مطالبه سفراءَه، والصعود بحاجاته كفلاءَه، والأقران غرماءَه، وأنا من الجَفاءِ عليلٌ، ومن الشربة التي سقانيها ثقيلٌ، وخُماري منها عريض طويل. ذَكَر سيدي أني قطعتُ مكاتبته تناسياً له، وتهاوناً به، وإعراضاً عنه، وجهلاً بما كان في يدي منه، وقد صدَّقته في الأولى، ولم أُسَلِّم له في الأخرى، أما الكتابةُ فقد انقطعت، والمودة ما ضيعت، والعهد بمائه على صفائه، لٰكن للأيام في قَطْع علائق الحبال، وأسباب الوصال، أسبابٍ بعضها من ذنوب الزَّمان، وبعضها من ذنوب الإنسان، وقد أقررت بالتقصير، والتزمت تَبِعةَ الذنب بالمعاذير، فإن كنتُ أسأتُ حين قصرتُ، فقد أحسنتُ حين أقررتُ، وإن عَقَقْت لما لم أقُم لمودَّة سيدي بعنايتها، ولم أرعَها حقَّ رعايتها، فقد أجملتُ لما وَفَّرت عليه سهْمه الفضل، وخلَّيت له في السبق الخطل، وبسطت لسانه بالعدل، فوضع قلمه حيث شاءَ من الملام، وركض عليَّ ما أراد من حِلية الكلام، ولولا أنه وجد بجنابي تراباً، لما تمرَّغ، ولولا أنني أجررته لسان البلاغة، لما أبلغ.

وله استبطاء:

يا أطيبَ الناس ريقاً غير مختَبِرٍ ... إلَّا شهادةَ أطرافِ المساويكِ
قد زُرتِنا مرةً في الدهر واحدةً ... ثَنِّي ولا تَجعلِيها بيضةَ الديكِ[٤٩]

زرتني أيَّدك الله نصف زورة، ثم هجرتني مدة فترة، فليتَ شِعْري ما الذي أنكرتَ من أحوالي، وما الذي عظَّمت من أفعالي وأقوالي، فأُقلِع عنه، وأتوب منه. ما أحبُّ لسيدي أن يكون خفيف ركاب الملال، قصير خطوة الوصال، لا يدوم لإخوانه على حال، هٰذا وهو بالأمس يعلِّم إخوانه كيف يَرُبُّ الوُدَّ،

---

(٤٩) هٰذان البيتان لبشار بن بُرد، أنشدهما له في «ديوان المعاني» ١/٢٤١.

وكيف يحفظ العهد، وكيف يرعى الغيب، وكيف تُراضُ على الوفاء القلوب، وما أتهم عليه غير عيني، فإني قد أصبته بها، فأبعدته بسببها، فمَنْ أَلومُ وأنا المشتكى والشاكي، وبمَ أتداوي وأنا لِمَرْمى الرامي، سقى الله ليلةً لقيت سيدي فيها، فلقد كانت قليلة، إلا أنها كانت جليلة، وقصيرة لٰكن حسرات فقدها طويلة، وأظنني لم أشكر عليها الدهر فسلَبَنيها، ولم أعرف قدَر النعمة عليَّ فأئتدي منها:

قلبتُ لها ظهر المِجَنّ وبطنه ... فلم ألق من أيامه عوضاً بعدُ

وإني لأَخشى أن أتعلم من سيدي السُّلوة، وأن أقارضه الجفوة، فيعديني برأيه، ويغريني بقلة وفائه، فيجمع عليَّ أليم الفراق، ويسلبني كريمَ التلاق، وإنما القلوب عيون تتراءَى، ووجوه تتلالى، وتجار تتبايع وتشارى. ومن شعر أبي بكر الخُوارزمي:

ما أثقلَ الدهرَ على من رَكِبَهْ ... حدثني عنه لسانُ التجرِبَهْ
لا نحمَدُ الدهر لخيرِ سلبَهْ ... فإنه لم يعتمدْكَ بالهبَهْ
وإنما أخطأ فيك مذهَبَهْ ... كالسيل إذ يسقي مكاناً خرَّبَهْ
والسم يستشفي به من شرِبَهْ ... وذا تفضُّلٍ عَلا في مرتبَهْ

أخبرني من رآه بنيسابور وقد كَظَّه الشراب، فطلب فُقاعاً[٥٠] فلم يجده، فقال: لعن بما . . . الفقاع لما طلبتُه . . . هجرت عتيقاً والزلام ونعثلاً[٥١]، فإذا كان يهتفُ بهٰذه الجملة لغير علة، فكيف به مع تفريع العلل، وتوسيع

(٥٠) الفُقاع: شراب يصنع من الشعير له فقاعات.
(٥١) قد تكون هجوت عتيقاً والغلام ونعثلاً، وعتيق: أبو بكر الصديق والغلام: الساقي، ونعثلاً: عثمان بن عفان.

الأمل، بمن يطابقه على كفره، ويوافقه على شرِّه.

ومن محاسن أبي الفضل بن العميد الوزير رُقْعةُ استزارة إلى بعض أصدقائه، وهي قوله: مجلسنا يا سيدي مفتقِرٌ إليك، معوِّل في أعتابه عليك، فقد أبَتْ راحُه أن تصفوَ إلا أن تتناولها يُمناك، وأقسم غِناؤه لا طاب أو تَعِيه أُذناك، فأما خدود نارنجه، فقد احمَرَّت خجلاً لإبطائك، وعيون نَرْجسه فقد حدَّقت تأميلاً للقائك، فبحياتي عليك لَمَا تعجَّلت، لأنْه لا يخبث من يومي ما طاب، ويتكرَّر فيه الأصحاب، وإنما نحن وحياتك في مجلس راحُه ياقوت، وكُوب نارنجه ذهب، ونرجسه دينار ودرهم، يحملهما زبرجد، وألْسنة العيدان تخاطب الظرفاء بهلُمَّ إلى الأفراح، لٰكنَّا لغيبتك كعِقْدٍ غُيِّبت واسطتُه، وشباب أُخذت جِدته، وأحب أن تكون إلينا أسرع من الماء إلى انحداره، والقمر إلى مداره، صِرْنا ـ أيَّد الله مولاي ـ إلى بستان كأنه من خلقه خُلِق، ومن فلقه سُرِق، فرأينا أشجاراً تميلُ فتذكره ترنُّح الأحباب، وقد تداولته أيدي الشراب، وأنهاراً كأنَّها من يد مولاي تسيل، أو من راحته تفيض، فحضرنا فلان، فعلا نجمنا، وحمدنا أمرنا، . . وتسهَّل طريق الخير لنا، فلما دَبَّت الكؤوس فيهم دبيب البُرْءِ في السَّقَم، والنار في الفحم، فإن رأى مولاي أن يجعل أُنسَنا غداً عنده، فقلت: سمعاً، ولم استَجِز لأمره دفعاً، وألتمس منه الحضور إلى المجمع ليقرب علينا متناول البدر لمشاهدته، ولمس الشمس بمطالعته، فإن رأى أن يشفعني أسعفني إن شاء الله.

فصل من كتاب آخرٍ

علَّقتُ هٰذه الأحرفَ على حافَةِ حوض ذي ماء أزرق، كصفاء ودِّي لك، ورِقة قولي في عتابك، ولو رأيته لأُنْسيت أحواض مارب، ومشارب أم غارب، وقد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت، فسال دماؤها، وضعف فبقي دَماؤُها، وشامتني أشجار كأن الحُور أعارتها أثوابها، وألبستها أبرادها، وحضرتني نارنجات ككُرَات من سَيرٍ ذُهِّبت، أو ثُدِيٍّ أبكارٍ حُلِّقت، وقد تبرَّم بي الحاضرون لطول الكتاب، فوقفت وكففت، وصددت عن كثير مما له تشوَّقت.

وكان المأمون جالساً، وبين يديه أحمد بن يوسف الكاتب، وقد وَرَد عليه كتاب عمرو بن مَسْعَدة، فكرَّرَ النظر فيه، وأُعجب به، ثم رمى به إلى أحمد، وقال: انظر إلى البلاغة في الإيجاز. فوَجَد فيه: كتابي إلى أمير المؤمنين، أدام الله اقتدارَه، وأجنادُه في الانقياد وجميل الطاعة، على أحسن ما يكون عليه جندٌ تأخرت أرزاقُهم، وانقياد حُماة وكُفاة تراخَتْ أُعطياتهم، واختلت لذلك أحوالهم، فرأيُ أمير المؤمنين في العناية بأمرهم، والتفضل عليهم. فقال المأمون: استحساني إليه بعثني على أن آمر لهم بعطاء سبعة أشهر. ثم وَقَّع لهم بذٰلك.

وكتب عمرو شافعاً إلى والي واسط: كتابي إليك واثقٌ بمن كُتِب إليه، معني بما كُتِب له، وليس يضيع من كان محله بين الثقة والعناية.

وقال عبد الحميد: العلم شجرة ثمرُها الألفاظ، والفكر بحر جوهره الحكمة.

وقال جعفر البَرْمَكي: البلاغة والبيان أن يكون الكلام محيطاً بالمعنى، مجلِّياً عن المغزى، مخرجاً عن الشركة، غير مستعان عليه بالفكرة.

وكان الناس يشترون رسائل جعفر بن يحيى وتواقيعه بالأثمان الكثيرة، ويتنافسون فيها، وقد قيل في أولاد يحيى البرمكي: وهم بيت الفضل والسياسة أولاد يحيى أربع كالأربع الطبائع فهم إذا اختبرتهم طبائع الصنائع، وكان كلُّ واحد منهم قد تميَّز بفضله، فالبلاغة في جعفرٍ، والسماحة في الفضل، والشجاعة في موسى، والجمال في إبراهيم، وكلُّهم سَمْحٌ جَوادٌ.

ويُحكى أن المنصور لما بَعَثَ إلى أبي مسلم يدعوه، وقد أحسَّ كل واحد منهما بالتغيير، كتب إليه معتذراً، وقال في كتابه: إن حكماءَ الفرس تقول: أَخوَفُ ما تكون الوزراءُ، آمنُ ما تكون الملوك، وإنني قد مَهَّدْت لكم البلاد والعباد، فإن خراسان تحتاج إلى نَظَر وضبط. فلم يَزَلْ يعاوده ويراسله حتى جاءَه فقتله، والقصة مشهورة في قتله.

قال بُزَرْجُمَهْر: أَسوَسُ الملوك يحتاج إلى وزير، وأشجع الناس يحتاج إلى سلاح، ومَثَل الملك الصالح إذا كان وزيره فاسداً، مثل الماء الصافي العَذْب فيه التماسيح.

وقال بَزرويه: لا تغتَرِرْ بكرامة الأمير إذا غشَّك الوزير. أخذه ابنُ العميد فقال:

هيهاتَ لم تَصدُقْكَ فِكرتُك التي ... قد أَوهمتكَ غِنىً عن الوزراءِ
لم تُغْنِ عن أحدٍ سماءٌ لم يَجِدْ ... أرضاً ولا أرضٌ بغير سماءِ

وكان جعفر البرمكي لا يجلس إلا في طرف إيوانه، فقيل لأخيه في ذلك فقال: الأشرافُ في الأطراف يتناولون ما يريدون بالقُدْرة، وينالهم من يريدهم بالحاجة.

وقال عبيدالله وزير المهدي: البلاغة ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة.

وقال الصاحب: أبلغُ الكلام ما سبق معناه لفظَه.

وقد أحسن البُحْتُري في قوله:

حُزْنَ مستعملَ الكلامِ اختياراً ... وتجنَّبْنَ عنفةَ التعقيدِ[٥٢]
ورَكِبْنَ المعنى القريبَ فأدرَكْـ ... ـنَ به غايةَ المرامِ البَعيدِ[٥٣]

ومن محاسن لطائف الوزراء:

قال الفضل بن يحيى: ما قَدْرُ الدنيا حتى يُمدَحَ من يجود بكلها، فضلاً عن بعضها.

وقيل: رأى المهدي في قصره حُزمة خَيزُران، فقال للفضل: ما تلك؟ فقال: عروق الرمان يا أمير المؤمنين. لم يُرِد أن يقول «الخيزران» لموافقته اسمَ أم الرشيد.

وقيل لجعفر بن يحيى: لا خير في السرف. فقال: لا سرفَ في الخير.

وكان القاضي أحمد بن أبي دُواد يشتغل بأمور الخلفاءِ، ويضاهي الوزراء، وكان يقول: ما كلَّمتُ المعتصم والواثق قط بحضرة محمد بن عبدالملك الزَّيات في حاجةٍ، خوفاً أن يتعلَّم مني لطائف التأتِّي لطلب الحاجات من الملوك.

قال ابن الفُرات: أربع من تعوَّدَهن لم يصبر عنهن: الشمع والقد[٥٤] والخيش والثلج.

---

(٥٢) في «الديوان» ١/٦٣٧: ظُلمة التعقيد.

(٥٣) في «الديوان» وركبنَ اللفظ.

(٥٤) والند على الأرجح وهو الطيب.

أهدى الصابىء إلى الوزير أبي محمد المُهَلَّبي دَواةَ ابنوس ومرفعاً لها، وكتب إليه، قد خدمتُ سيدنا بدواة تداوي مرضى عفاته، وتروي قلوب عداته، على مرفع يُؤذن بدوام رفعته، وارتفاع النوائب عن ساحته.

ومن تواقيع الوزراء وفصولهم:

كتب عامل متعطل إلى الصاحب بن عبَّاد، تتضمن استطلاع رأيه في تصريفه، فوقَّع عليها: التصرف لا يُلتمس بالتكلف، إن احتجنا إليك صرَّفناك، وإن استغنينا عنك أحسنَّا إليك وصَرَفْناك.

ووقَّع الميكالي في رُقعة متعتِّب شاكٍ: النعمةُ عروس، مهرها الشكرُ، وثوب صَوْنُه النشر.

وقيل: إن الصاحب وقَّع رقعة بنقطة، وفي رقعة بأَلِفٍ، وذلك أنه التمس منه بعض القضاة شيئاً، ثم كتب في آخر رقته • فإن رأى مولاي يفعل ذلك فَعَل. فوقَع قبل فعل ألِفاً، فصار: أفعَل، فخرج التوقيع ولم يشعر به، ثم رجع فقال: قد وقَّعت، حتى فطن له، وأما النقطة، فإنه وضعها في رقعة على لفظة «يفعل» فنقط (الياء) من فوقها، فعادت نوناً.

ووقَّع بعض الوزراء في مؤامرة ببذل الأمان، وكتب لبعض المعاندين: يؤمَّن، ولا يؤمَّن.

وله في الاعتذار عن هاربٍ: من خشن مقره، حسن مفره.

ورُفع إلى الصاحب أن رجلاً غريب الوجه يدخُل داره، ويسترق السمع، وينقل الأخبار، فوقَّع عليها: منزلنا خان، يدخله من وفى ومَن خان.

ووقَّع بعضهم إلى وكيل له على عمارة بساتينه وضياعه: استكثر من شجر

الفرصاد[٥٥]، فإن خشبَها حطب، وثمرها رُطَب، وورقها ذهب.

وكتب ابن الزيات إلى ابن طاهر: قطعتُ عنك كتبي قطع إجلالٍ، لا قطع إخلالٍ.

وكتب يحيى بن خالد في الاستبطاء والاقتضاء، ولم نسمع بأوجزَ منه: في شكر ما تقدم من إحسانك، شاغلٌ عن استبطاء ما تأخر منه.

واشتكى إليه رجل من عامل واسط مرة بعد مرة، فوقَّع إلى العامل: اكفنى أمره، وإلا كفيتُه أمرَك.

وقَّع فخر الملك أبو غالب وزير ابن بُوَيه في رقعة: سماع السعاية قبيحة، وإن كانت صحيحة، ومعاذ الله أن نقبل من مهتوكٍ في مستور، ولولا أنك في خِفارة شيبك، لقابلتك بما يقتضيه فعلك، ويرتدع به مثلك، فتوَقَّ ويحك العيبَ، فإن الله أعلمُ بالغيب، فطوبى لمن شغله ما يعنيه عما لا يعنيه. ثم دفعها إلى الحاجب، وقال له: اخرُجْ إلى الباب، ونادى باسم صاحبها، فإذا ظَهَر، اقرأها على الناس، ثم أنفذها إليه. ففعل ذٰلك، فضجَّ الناس بالدعاء له، والثناء عليه.

رُفعت إلى يحيى بن خالد البَرْمَكي رسالة ركيكة العبارة، بخطٍّ مليح، فوقَّع: الخطُّ جسم رُوحُه البلاغة، ولا خير في جسم لا روحَ فيه.

وكان بعض أولاد المتصرفين قد قصد عبيدالله بن سليمان الوزير[٥٦]،

---

(٥٥) التوت.

(٥٦) عبيدالله بن سليمان الوزير (٨٤٠ - ٩٠١م) (٢٢٦هـ - ٢٨٨هـ). هو عبيدالله بن وهب الحارثي أبو القاسم وزير الخليفة المعتمد العباسي ثم المعتضد وهو وزير وابن وزير ووالد وزير القاسم بن عبيدالله قال فيه ابن المعتز:

هذا أبو القاسم في نعشه ... قوموا انظروا كيف تسير الجبال =

وواصل رقاعه إليه يطلب منه الأعمال والأشغال والأقطاع، وكان فيه تخلُّف وجهل، فلما ألَحَّ عليه وأبرمه، وَقَّع في ظهر بعض رقاعه: يا هٰذا، قد أكثرتَ فيما تلتمس، ولستُ أعرفك بالكفاية فأقلِّدك الأعمال، ورِقاعك هٰذه تدلُّ على قدر ضياعتك، وتمنع من الاستنامة إلى كفايتك، فردُّك أسهل من تقليدك، وقد رَسَمْنا لك بكذا وكذا فاستَعِنْ به في بعض المصارف، واشغَلْ نفسك بالتدرب على المعارف.

ورفعت إلى جعفر بن يحيى رقعة سعاية تتضمن: أن فلاناً دعاني إلى طعامه، فأحضر من آلات الخاصة وطعامهم ما يدلُّ على عظم الحال، وكثرة المال. فوقَّع فيها: لم نحمَدْكَ على نصيحتك، وذَمَمْناه على سوء اختيار الإخوان.

ووقَّع يحيى بن خالد في تهديدِ مَن شُكِي إليه ظلمُه: بئس الزادُ إلى المعاد، ظلمُ العباد.

ومن التواقيع المتقدمة في ذٰلك: قد كَثُر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإما عدلتَ، وإما اعتزلتَ.

ووقَّع الفضل بن سهل في رقعة خائفٍ من عاقبة أمرٍ يتولَّاه: ليس عليكَ بأس، ما لم يكن منك يأس.

وكتب صاحب أرمينية إلى المأمون: أن الجند قد استطالوا عليه، وشَغَبُوا في طلب أرزاقهم، حتى كسروا أقفال بيت المال فانتهبوه، فوقَّع عليه: اعتَزِلْ عملَنا. فلو عَدَلْت لم يَشْغَبوا، ولو قَوِيت لم يَنْهَبوا. ثم قلَّد أمرهم مَن أحسن أدبهم، وأوصلهم حقَّهم.

= الزركلي ـ الأعلام، ج٤، ص ٣٤٩.

ووقَّع ذو الكِفايتين في رقعة من الخَزَف عن السلطان، وجاهر بالعصيان؛ **﴿ألَم نربِّك فيناً وليداً، ولَبِثْتَ فينا من عمرِكَ سنينَ، وفعلتَ فَعْلَتَك التي فعلتَ وأنتَ من الكافِرين﴾**(٥٧).

ووَقَّع الصاحب في كتابٍ استَحسَن بلاغته: **﴿أفسِحرٌ هٰذا أم أنتم لا تُبْصِرونَ﴾**(٥٨).

وأما التواقيع بألفاظ القُرآن وأحاديث النبيِّ عليه السلام فكثيرة جداً، استعمله العلماء الفضلاء، وهو حَسَن في الجد من الأمور، محظور في المزح والمطايبة، وقد كانت الصحابةُ والصدر الأول يُصَدِّرون كتبهم بآيات القرآن، ويذكرون منه ما يتعلَّقُ بالوعد والوعيد، والنهي والأمر، إلى غير ذلك من الأغراض، ولو تتبَّعْنا ذلك لطَال الكتاب.

---

(٥٧) هي الآية ١٩ من سورة الشعراء.

(٥٨) هي الآية ١٥ من سورة الطور.

فصل في العفو وما يجري مجراه

قال الله تعالى: ﴿والكَاظِمِينَ الغَيْظَ والعافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وقال: ﴿ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إن ذٰلكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. فأحقُّ الناس بالعَفْو، مَن كان أقدر على العقوبة.

قال إبراهيم بن المهدي للمأمون عند ظَفَره به: ذنبي أعظم من أن يُحيطَ به عذر، وعفو أمير المؤمنين أعظم من أن يتعاظَمَه ذنبٌ. فعفا عنه.

وقَّع الفضل بن صالح في رقعة نائب من جُرْم: التوبة للذنب كالدواءِ للمريض، فإن صحَّت توبته، كمَّل الله شفاءَه، وإن فسدت نيتُه، أعاد الله عليه داءَه، ولا ينبغي للوزير أن يجسُرَ على سفك الدماء، ولا حطِّ الأقدار، إلا من بعد تحقق الاستحقاق، ومن استعجل في العقوبات ندم، ومن اتبع أحكام الشريعة سَلِم، ومن ظَلم ظُلم، ولا ينبغي للوزير أن يعاقب بالتخليد في السجن، فإنه نوع من الإماتة.

وقيل: إنه لِيمَ بعضُ الوزراء في طول سجن بعض الجناة، فقال: به أمراض نفسانية خبيثة، لم ينجح فيها أدوية العقوبات، فكان السجن ردعها وكفَّها.

ولا ينبغي أن يُعلنَ الوزراء بعقوبة من لم يعلن بذنبه، فتكثر اللائمة، بل يضع لذنب السرِّ عقوبة السر، ولذنب العلانية عقوبة العلانية، إلا في الحدود المأمور بأفعالها، ولتكن عقوبته للأدب لا للغضب. وقد ذكرتُ بعض ما ينبغي

من ذلك في كتابي «الملوكي» المؤلَّف للملك خُوارزم شاه، وينبغي للوزير أو مَنْ يَنُوب عنه أن يتفقَّدَ حال أهل السجن في كل شهر. فيخرج منه مَنْ قد حصل تأديبه وزَجْره، ويتلطَّف في إخراج مَنْ خَفَّ ذنبه، أو كان له غريمٌ يمكن رضاه، ومَنْ كان فقيراً، قام بموؤنته من بيت المال.

فصل لابن ثوابة من كتاب إلى والٍ

أما بعدُ، فإن النعمة عند أمير المؤمنين توجب عليه الشكر، أو تقضي عنه اعتماد ما أكسبته المثوبة والأجر، وقد علمتَ حال أهل الجرائم المحبسين في السجون بأمصار عملك، وقد أظلَّهم من الشتاء والبرد إلى ما هم فيه من الضَّنْك والجهد، وهم، وإن كانوا ذوي جرائم قدَّموها، وجنايات اقترفوها، وأحداث ارتكبوها، فإن الأمير المؤمنين رأفةً بهم، مع ما أقامه من الواجب عليهم، وقد أمرك بإحصاء عمنْ في الحُبوس من أرباب الجرائم الذي لا يَسُوغ إخراجهم، ولا لهم مال ينفقونه، فتثبت أسماءهم، وتبتاع لكلِّ رجل منهم قميصاً وسراويل وقَلَنْسُوة، وللمرأة رداءً وخماراً وقميصاً، وإحضار آمنين من جهة القاضي، عارفين بذلك، مباشرين له، وابعث كتابك وكتاب القاضي بتفصيل ذلك وصحته إن شاء الله.

ووقَّع بعض الوزراء في رقعة والي المظالم: لا تُطِل سجن ذوي الجرائم سوى مَنْ تكررت جنايته، وأيست توبته، واتَّصل شره، ولم توجب الشريعة قتله، فيُخَلَّد في السجن، ويُمان ويُعال، إلى أنه يقتضي المصلحة بأن يقال.

ولما ولي المهدي، تَفقَّد السجن وأطلق أكثر مَنْ كان فيه، فقيل له: إنك تزدري بذلك على أبيك، وتقصد توبيخَه، فقال: لا، إن أبي حبسهم بالذنوب، وأنا أُطلقهم بالعَفْو.

وقد يدهَمُ الملك حادثٌ من أمر الأعداء والخوارج، فيكون من الصواب

تقديم أهل السجون في ذلك المهم، كما فعل كثيرٌ من الملوك الأُوَل، فإنهم كانوا يقدمونهم في الأخطار والمخاوف، كما فعل كسرى حين قصده سيف بن ذي يَزَن[٥٩] يستنجده على الحبشة حين تغلَّبوا على بلاد اليمن.

ومما قيل في التهنئة بالخلاص من السجون والنكبات، قولُ أبي محمد بن المهلَّبي من قصيدة:

وما كنتَ إلا الشمس أخفى ضياءَها ... كسوفٌ عليها ثم زال كسوفُها
وكانت كأغماد السيوف حبوسُكم ... فأطلقتُم عنها وسُلَّت سيوفُها

ولأبي عباد البحتري:

وما كان ذاك الحبسُ إلا غَبايةً ... بدا طالعاً من تحت ظُلمتِها البدرُ
فلا نَنْسَ نُعْمى اللهِ فيك فحظَّنا ... أَضَعْنا وإنْ نشكُرْ فقد وجبَ الشكرُ

---

(٥٩) سيف بن ذي يزن (٥١٦ ـ ٥٧٤م ١١٠ ـ ٥٠ ق هـ) هو سيف بن ذي يزن أصبح ابن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري من آخر ملوك العرب القحطانيين. ولد في صنعاء وساهم فيما بعد بإخراج الأحباش من اليمن بالتعاون مع الفرس وبعد إخراج الأحباش تم ضم اليمن إلى فارس ثم قتل سيف بن ذي يزن على أيدي الأحباش. الزركلي ـ الأعلام، ج٣، ص ٢١٨.

فصل في استعطافات الملوك والوزراء وطلب العفو والرضى وما يحسن من ذٰلك ويحمد

أَمر عبدُ الملك بن مروان بقتل رجلٍ مذنب، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك أعزُّ ما تكون في نفسك، أحوج ما تكون إلى ربك، فاعفُ عني له، فإنك به تُعان، وإليه تعود، فعفا عنه.

ويقال: إن بعض الملوك قبض على قوم من أعدائه، فحبسهم، وبالغ في تعذيبهم، فكتب إليه بعضهم بهذه الأبيات:

رعاك الذي استرعاك أمرَ عبادِه ... وكافاك عنا المنعمُ المتفضِّلُ
تعاقبُ تأديباً وتعفو تطوُّلاً ... وتجزي على الحسنى وتعطي فتجزلُ

فلما قرأها أدركته الخشيةُ، فأطلقهم وأحسن إليهم.

وكتب عامل مقبوض عليه إلى ابن مُقْلة: نحن في الصحبة كالنِّسرين، لٰكنني واقع، وعلى الطائر أن يغشى أخاه ويراجع.

ويُحكى أن أبرويز الملك غضب على بعض أصحابه لجُرْمٍ عظيم، وحبسه وضيَّق عليه، ثم سأل عنه بعد مدة: هل يتعهَّدُه أحد من أصحابه؟ فقال السجّان: لم يتعهَّدْه سوى الغهليد المغنِّي، فإنه يُوجِّه إليه كل يوم بسَلَّة فيها طعام. فأحضره أبرويز[٦٠]، وقال له: ويلك، غضبتُ على فلان لعظيم جرمه،

(٦٠) أبرويز: هو كسرى خسرو بن هرمز ٦٢٧م - ٦هـ. تولى الملك سنة ٥٨٩م، ساعده

وتجافاه الناس لذلك غيرك، فإنك تصله وتتعهده، فقال: أيها الملك، إن البقية التي بقيت له عندك حتى أقرَّت روحه في بدنه، بقيت له عند عبدِك أن يَقُوته برغيفين أو سلة من طعـام، فقال: أحسنت وأصبت، وقد وهبتُ لك جُرمَه. وتقدير الكلام: إنك لما عدلتَ عن قتله إلى حبسه، دلَّ على أنك أردت بقاءَه، وقد ساعدتك في هٰذه الإرادة.

وقـرأتُ في كتـاب «المجلس» للصـابىء: لما قَدِمَ عبيدالله بن سليمان الـوزير من الجبـل في أيام المعتضد، صار إليه أبو العباس وأبو الحسن ابنا الفُرات، فوجداه يميز أعمالاً وكتباً، وبين يديه كانون نار يحرق فيه ما لا يحتاج إليه، فدَفَع إلى أبي العباس إضبارة ضخمة، وقال: يا أبا العباس، هٰذه وقائع وسعايات بك وبأخيك من جهة أسبابك وثقاتك، وَرَدَتْ عليَّ فخبأتها لك، لتعـرف من ينبغي أن يُحترس منه، وتعامل كل واحد بما يستحقه، فأكثر أبو العباس من شكره والدعاء له، وبدأ أبو الحسن في قراءة الأوراق، فانتهره أبو العباس وقال: لا تقرأ شيئاً منها. وأخذ الأوراق من يده فطرحها في النار، وقال: ما كنت لأُقـابـل نعمـة الله تعالى بما وهبه لي من تفضيل الوزير وإحسانه، بالإساءة إلى أحدٍ يكون هو سببه. ثم نهض، وقال الوزير عبيدالله: ما أردتُ التفرُّدَ بمكرُمة، إلا وسبقني إليها أبو العباس وزاد عليَّ فيها.

وما أحسنَ قولَ إبراهيم بن المهدي حين استعطف المأمون واعتذر إليه، فقال:

= الإمبراطور البيزنطي موريس بعد أن خلع أباه هرمز. الترمانيني، ص ١٩٨.

والغهليد هو المغني عند الملك ذكره الشاعر البحتري في سينيته الشهيرة ولفظه (البَلْهَبذ)

وتَوَهَّمْتُ أنّ كِسرَى أبرَوِيـ ... ـزَ مُعاطيً والبَلْهَبَذ أُنْسي

اللهُ يعـلَمُ ما أقـولُ وإنـهـا جهـدُ الأَلِـيَّة من منـيبٍ راجـعِ
ما إن عصيتُـك والغُـواة تمـدُّني أسـبـابـهـا إلا بنـيةَ طائـعِ
فعـفـوتَ عن من لم يكن عن مثلِه عفـوٌ ولم يشفَـعْ إليك بشـافـعِ
إلا الـعلو عن العقـوبـة بعـدَمـا ظَفِـرَتْ يداك بمـستكينٍ خاضـعِ
نفـسي فداؤُك إذ تضـلّ معـاذِري فألُـوذُ منـك بفضـلِ حلمٍ واسـعِ
ورحمتَ أطفـالاً كأفـراخِ القـطا وحـنينَ والـدةٍ كقـوس الـنـازعِ

وللشريف الزَّيدي:

أجـري على الـدهـرِ فيمـا بقيت بقـيت فمـا قد مضـى قد مضى
فلستُ أُبـالـي بسـخط الـزمـانِ وأنـت ترانـي بعـينِ الـرضـا

وللصابىء في إشهار العفو:

ومن الـظلمِ أن يكـون الرِّضى سراً ويبـدو الإنـكـار وسطَ الـنـادي
ومـن الـعـدل أن يُشـاع بهٰـذا مثـلُمـا شاع ذاك في الأشـهـادِ
كي يُسـرَّ الـصـديقُ بالعفـو عني مثـلمـا سُرَّ بالـنـكـيرِ الأعـادِي

وما أبدع قولُ السلامي في الاعتذار:

تبـسَّـطْنـا على الآثـام لمـا رأينـا العفـوَ من ثمـرِ الـذنـوبِ

وأُحضِر رجل عند المهدي وهو مقيّد، فجعل يعدِّدُ عليه ذنوبه، فقال: يا أمير المؤمنين، اعتذاري بما نسبتني إليه يردُّ عليك حيث أقول: لا ذنبَ لي، وإقراري بما يعدِّدُ أمير المؤمنين يلزمني ذنباً لم أجنه، ولٰكني أقول:

لئن كنتَ ترجـو في العقـوبـةِ راحـةً
فلا تزهَـدَن بعـد المعـافـاةِ في الأَجرِ

فصل في بعض مدائح الوزراء

قال عمر الربيب في خالد البرمكي:

حَذا خالـدٌ في جُودِه حَذْوَ برمـكٍ ... فمـجـدٌ له مسـتـطرفٌ وأَثِـيلُ
وكـانَ بنـو الأعـلام يُدعَـون قبلَه ... بإسـمٍ على الإعـدام فيه دلـيلُ
يُسمَّـون بالسُّؤال في كل موطـنٍ ... وإن كان فيهـم نابـهٌ وجـليلُ
فسمَّـاهـم الـزوارَ ستـراً عليهـم ... وذٰلـك من فِعـل الـنَّبَـال نبيلُ

أصل ذٰلك أن خالداً البرمكي حضر بمجلسه جماعةٌ من الأدباء، فحضَر سائلٌ فقال بعضهم: انظروا لهٰذا السائل فقال خالد: الأَولى تسميتُهم بالزوار، لا السُّؤال.

وقال محمد بن مُناذِر:

أَتتهـا بنـو الأمـلاكِ من آل برمـكٍ ... فيا طِيبَ أخبـارٍ ويا حسنَ منـظرِ
لهم رحلةٌ في كل عام إلى العِـدى ... وأخـرى إلى البيت العتيقِ المـطهرِ
إذا نزلـوا بطحـاءَ مكـةَ أشـرقت ... بيحيى وبـالفضـل بن يحيى وجعفرِ
فمـا خُلْقَتْ إلا لجـودٍ أكـفُّـهـمْ ... وأقـدامُـهـم إلا لأعـوادِ منـبـرِ

ولـه:

سألتُ النَّـدى هل أنت حرٌّ فقال لا ... ولٰـكـنـني عبـدٌ ليحيى بن خالـدِ
فقـلتُ شراءً قال لا بل وراثـةً ... تنـاقَـلَني من والـدٍ بعـد والـدِ

ولأبي الحَجْناء نُصيب:

عنـدَ الـملوكِ مضـرَّةٌ ومنـافـعُ ... وأرى البـرامـكَ لا تضـرُّ وتنفـعُ
إن العـروقَ إذا استسـربهـا الثَّـرى ... نَضِـرَ النبـات بهـا وطـاب المـزرعُ
فإذا جهلتَ من امـرىءٍ اعـراقَـه ... وقَـديمَـه فانـظر إلـى ما يصنَـعُ

وقال سَلْم الخاسر:

سأرسـلُ بيتـاً قد وسـمتُ جبينَـه ... يقـطعُ أعنـاق البيوتِ الشـواردِ
أقـام النَّـدى والجـودُ في كل منزلٍ ... يقيمُ به الفضـلُ بن يحيى بن خالدِ

وقال آخر:

لِلنَّـاس والـجـودِ حدٌّ وأرى ... آل يحـيى ما لهـم في الجـودِ حَدُّ
يفـعـل الـنـاسُ إذا ما وَعَـدُوا ... وإذا ما فعـل الـفـضـلُ وعـدُ

وللغَزِّي في العلاء بن مكرم:

يثني خطوبَ الـدهـر عن إقليمِـه ... قلمٌ جرى يوم الهبـاتِ فمـا انثَنَى
ومـن الـعجـائبِ أن صُلب نَوالِـه ... متحمـلُ ثِقَـلَ الـرجـاءِ ومـا انحَنَى

ولأبي الفتح البُسْتي:

ظلُّ الـوزيرُ مَقـيلُ كلِّ سعـادةٍ ... يجـدُ الـمُـؤمِّـلُ في ذُراه مُنـتَشـا
مَن شاءَ منـشـأ غبـطةٍ وسـعـادةٍ ... بلقـائـهِ يُدْرِكْ ويلحَـقْ ما يَشَـا

ولـه:

إذا دَهـى خَطْبٌ فآراؤه ... تُغـني عن الـجيشِ وتـسـريبـهِ
وإن دجـا ليلٌ بدا نُورُه ... للركـبِ نجـمـاً فهـي تسـرِي بهِ

ولأبي بكر القُهستاني :

دعيتَ نظامَ الملك فاتَّسع الملكُ ودام على أعداءِ دولتك الهُلْكُ
وأغرقَ بالطوفان كُلَّ معاندٍ ودان لك الجُودي واستوتِ الفُلْكُ

ولأبي سعد الرُّسْتمي في الصاحب:

وَرِثَ الوزارة عن أبيهِ وجدِّه موصولةَ الإسنادِ بالإسنادِ
يروي عن العباس عبادٌ وزا رتُه وإسماعيلُ عن عبَّادِ

ولأبي الفتح البُسْتي في أبي نصر العُتْبي :

شرفٌ كعِقْدِ الدرِّ واصل بعضُه بعضاً كأنبوب القَنا المُنآدِ
وعُلاً كأيامِ السنين ترادفت أيامُها بتكررِ الأعيادِ

ولغيره، وتروى له :

أبلغْ مقالِي كُلَّ عافٍ مجنَدِ ومؤمِّل في قصده أن يهتدي
عَرِّج على المولى الكبير المرتَجَى صدرِ الوزارة أحمدَ بن محمدِ
فروَاؤه ملء العيون وحبُّه ملءُ القلوب وسَيْبُه ملءُ اليدِ
فاثْنِ الرجاءَ إلى عُلاه فإنَّه بدرُ الدجى شمسُ الضحى غيث الصَّدِي
لا زال في يوم أغرّ مُبشِّرٍ بسعادةٍ غراء تطْلُعُ في غدِ
ليقيمَ كل مُؤوَّدٍ ويُنيمَ كـ ل مسهدٍ ويَضمَّ كل مبدَّدِ

ولأبي الفرج الببغاء في أبي نَصْرِ سابور وزير بهاء الدولة بن بُويه وقد أغرق فيه وبالغ :

لمتُ الزمانَ على تأخيرِ مطَّلبي فقال ما وَجْدُ لَوْمي وهو محظورُ
فقلتُ لو شئتَ ما فاتَ الغِنى أمَلي فقال أخطأتَ بل إن شاءَ سابورُ

عُذْ بالـوزير أبي نصـرٍ وسـل شططاً واسْـرِف فإنـك في الإسراف معذورُ
فقــد تقبَّلتُ هٰذا النُصــح مِن زمنٍ والنصـحُ حتى من الأعـداءِ مشكـورُ

ولأبي محمد الخازن يمدح الصاحب:

هذا فؤادك نهــبــاً بين أهــواءِ وذاكَ رأْيك شُورى بينَ آراءِ

ومن مديحه:

لو أن سَحْــبــان باراهِ لأسْــحَــبــهُ على خَطَابــتــه أذيالَ فأفْــاءِ
أرى الأقــاليمَ قد ألقت مقَــالِـدَهـا إلــيه مســتــسـلمــاتٍ أي إلــقــاءِ
فســاس سبـعـتـهــا منــه بأربعــةٍ أمــرٍ ونــهــي وتـثـبـيتٍ وإمـضــاءِ
نعـم تَجنَّب «لا» يومَ العــطاءِ كمــا تجــنَّــبَ ابـنُ عطاءٍ لَثْغَــة الــراءِ
أُطــرَى وأطــرب بالأشعـار أُنشئهـا أحسِنْ ببهجــةِ إطــرابي وإطــرائي
ومــن نتــائــج مولانــا مدائــحُــه لأن مِنْ زَنْــده قدحــي وإبــرائــي
فخُــذْ إلــيك ابـنَ عبَّــاد مُحَـبَّـرَة لا البحتــريُّ يُدانيهــا ولا الــطائي

تمَّ الكتـابُ بعون الله وتوفيقه، وصلى الله على سيدنا محمد. وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين، آمين والحمد لله رب العالمين.

فُرِغ من كتابته يوم الجمعة المبارك، ١٨ شهر رجب/ سنة ١٣٠٠هـ.

استـــدراك

بعد أن انتهيت من تحقيق هذا الكتاب ودفعه إلى الطباعة وتوليت التدقيق للمرة الثانية عثرت على كتاب مطبوع في مطبعة العاني بغداد عام ١٩٧٧م، وبنفس العنوان وتحقيق حبيب علي الراوي والدكتورة ابتسام مرهـون الصفار وبعد أن قرأت الكتاب لاحظت أن الباحثين اعتمدا على نسخ أخرى غير التي توليت تحقيقها وهي النسخ التالية:

١ـ نسخة مكتبة فيض الله رقم ٢١٣٣ منها نسخة في معهد المخطوطات العـربية وهي في أربعين ورقـة نسخت يوم ١٤ رمضـان المكـرم من سنـة ١٠٢٨هـ، وهي التي اعتمد عليها الباحثان وقالا عنها أنها أقدم النسخ وصورت من معهد المخطوطات العربية.

٢ـ نسخة مكتب راغب باشا بتركيا أيضاً وكتبت سنة ١١١٢ بخط يوسف ابن محمد بن الوكيل الملوي وقد نسخها للباحثين الأستاذ كمال بهاء الدين.

٣ـ نسخـة أمـانـة خزينة وقد تم نسخها بتاريخ ١٨ شهر رجب من سنة ١٣٠٠هـ (صورت في معهد المخطوطات العربية).

٤ـ نسخة مكتبة غوطا برقم ١٨٨٦ وعليها تملك الفقير أحمد الصديقي ثم ملكها ابنه من بعده.

هذه النسخ السابقة كما يقول الباحثان منقولة عن نسخة واحدة، فالفروق بينها بسيطة بزيادة حرف أو نقصان آخر، إلا في مكان واحد أشار إليه الباحث

في النسخة الأولى والثانية.

يختلف المخطوط الموجود لدينا عن الكتاب المشار إليه أعلاه في أمور بسيطة بزيادة حرف أو نقصان آخر ما عدا في أماكن محددة هي:

في الصفحة ٤٩ وبعد كلمة وسمعت . . . . إلى آخر الفصل. تُوجد في هامش الكتاب على أساس أنها زيادة.

في الصفحة ٣٢، ٣٣، ٣٤ من بعد كلمة للفوائد الجمة، ولآخر الفصل. تُوجد في هامش الكتاب على أساس أنها زيادة في الصفحة ٦٣ و ٦٤. من بعد سمعت القاضي الفاضل ولغاية وتسد الثغور موجودة في هامش الكتاب على أساس أنها زيادة، ويظل لهذه النسخة من المخطوط التي بين أيدينا والتي توليت تحقيقها مزاياها في وضوح الطباعة والعرض المختصر المفيد، إذ إن تحقيق هذا المخطوط الذي بين أيدينا قد تم باختصار مفيد على خلاف طريقة الباحثين اللذين أسهبا في التفصيلات حتى وصل المخطوط إلى (٢١١) صفحة. وفي الوقت نفسه فإنني توليت التعريف بالأعلام الموجودة في المخطوط بطريقة تفيد القارىء وأوضحت غريب المعاني.

وسيلاحظ القارىء الفرق بين المنهجين في التحقيق وليس فيه أي تعارض، وأتوقع أن لكل من الطريقتين مزاياها ومن الأمور المهمة التي أرغب بالإشارة إليها أن المحققين وبعد أن أنهيا تحقيق كتابهما وجدا أن الألمانية (ريجناهاينكه) قد نشرته في مجلة الأبحاث الصادرة في الجامعة الأمريكية في بيروت لسنة ١٩٧٢م دون أن تعلق عليه أو تضيف عليه حواشي.

ومن الأمور المهمة التي أود الإشارة إليها أيضاً أنني توليت بنفسي نسخ هذا المخطوط، ودققته مراراً ودققه من ورائي أخوة أفاضل في دار البشير في حين

أن المحققين للكتاب المشار إليه قد اعتمدا على ناسخ في (إحدى النسخ) وهي نسخة مكتب راغب باشا بتركيا، إذ نسخها الأستاذ كمال بهاء الدين للباحثين.

والخلاصة أن لكل من العملين مزاياه في نظري وإن القارىء سيحكم على ذلك.

وزيرا من اهلي هارون اخي اشدد به ازري واشركه في امري كي نسبحك كثيرا
ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا قال قد اوتيت سؤلك يا موسى وهو اول
من تسمى بهذا الاسم على ما قيل وكان يوشع عن اخيه في كثير من امور
بني اسرائيل ولذلك استخلفه عليهم حين خرج الى الميقات ولم تزل ملوك
الفرس من اليونانيين والروم تتخذ لها وزراء ولهم في ذلك وضع وتواريخ
ولهم فيها سمات بلغاتهم وفي اصل اشتقاق اسم الوزارة اقوال
احدها انه من الوزر وهو الثقل لان الوزير يحمل اثقل من المدبر الموزور له
ومنه قول الله تعالى ولكنا حملنا اوزارا من زينة القوم اي اثقالا من متاعهم
حملهم وقال تعالى حتى تضع الحرب اوزارها اي سلاحها وتقديره حتى
يضع اهل الحرب سلاحهم لان السلاح يحمله الحاربون فيثقلهم حمله قال الاعشى
واعددت للحرب اوزارها ... رماحا طوالا وخيلا ذكورا
ترى منسج الدرع يحدى بها ... على اثر الحي عيرا فعيرا
وقيل انه مشتق من الازر الاعانة لان الوزير يعين المدبر على ما هو بصدده
في اعباء السياسة ومنه قوله تعالى واجعل لي وزيرا من اهلي هارون اخي اشدد
به ازري اي اشدد به ظهري وساعدته وقال تعالى سنشد عضدك باخيك
وقيل كوزج اخرج شطأه فآزره اي شطأه صغاره التي نبتت حول اصوله
وتولد ازره اعانه بمعناه وقراءته وقيل هو فاعل من وزر يزر فهو وازر
الوزر وهو عندهم اسم للقوة فاستعير وزر والمعنى عندانه يشتد
من صاحب الدولة ويقويه ويعضده على ما هو بصدده والاظهر انه من
المؤازرة والاعانة وهذا قد روي عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم
اذا اراد الله بعبد خيرا وقال بالامير خيرا جعل له وزير صدق ان نسي ذكره
وان ذكر اعانه واذا اراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسي لم يذكره